كبلنغ : شاعر الامبراطورية

مكانتهُ الادبية وفلسفتهُ

صاحب القول الذائع « الشرق شرق والغرب غرب »

بين ظهرانينا الآن رديرد كبلنغ الشاعر والمؤلف القصصي الانكليزي الطائر الصيت. وهو ملك من ملوك الكلام المنثور والمنظوم؛ ينشىء القصص الطويلة والقصيرة وينظم القصائد فيسمع لهُ ملايين من الناس — يسمعون مختارين مسرورين دهشين . يسمع لهُ كل من يقرأ الانكليزية في مشارق الارض ومغاربها لا لبلاغة في اقوالهِ تجري مجرى الاساليب المدرسية البليغة في الادب الانكليزي بل لانهُ يقول لهم ما يودون سماعهُ ويصف لهم طباع الناس واحوال الزمان والمكان وصفاً منطبقاً على الحقيقة كلَّ الانطباق . فانهُ كان يقول لهم في بدء حياتهِ الادبية ان الشعوب البيضاء ارباب الشعوب الصفراء والسوداء فعليهم ان يتسلطوا على تلك الشعوب ويعتنوا بها كما يتسلط الله على عبادهِ ويعتني بهم . وكان يقول لهم ولا يزال ، بعد رحلتهِ حول الارض ، ان الكون لا ينتظم بالحرية والاباحة بل بالقانون والطاعة . واي ملك لا يرضيهِ هذا القول . واي متسلط لا يودُّ نشر هذه المبادئ . يخاطبهم بذلك نثراً ونظماً لا يتوخى غريب الالفاظ ومهجور التراكيب بل اللغة المحكية المتعارفة . فاذا ادخل في قصةٍ من قصصهِ كتاباً انطقهُ بما ينطق الكتاسون واذا ادخل فيها بحريًّا انطقهُ كما ينطق البحارة واذا ادخل فيها فقيهاً انطقهُ كما ينطق الفقهاء . وهذا من الامور التي يمتاز بها ويجعل ترجمة كتاباتهِ متعذراً . فيشعر القارئ مع ذلك كانهُ يرى هؤلاء الناس امامهُ ويسمع كلامهم الذي يتكلمون بهِ عادة ولا يسمع منهُ كلمة يستغرب تكلمهم بها . واذا وصف مدينة في اميركا او قرية في بلاد الهند او غابة من الغابات الملتفة في المناطق الاستوائية او سفينة في عرض البحر حسبتهُ مصوّراً يصوّر لك ما يريد وصفهُ بالوانهِ الطبيعية وينفخ فيهِ نسمة الحياة

كاتب مثل هذا تسكر اقوالهُ الامة الانكليزية التي تملك ربع المسكونة بحجة تمدينها وتثقيفها ونشر راية العدل فيها . وقد اشار كبلنغ الى ذلك في قصيدتهِ المشهورة التي عنوانها « حمل الرجل الابيض » اي الامور التي تطلب من الشعوب البيضاء لشعوب السوداء والصفراء حيث يقول : « احملوا حمل الرجل الابيض واضرموا حروب السلام

الطاحنة . اشبعوا فم الجوع وضعوا حدًّا للامراض . فاذا اقتربتم من محجتكم اغمدوا سيف القناعة والجهل لئلا يقضي على ما املكوهُ

« احملوا حمل الرجل الابيض ولا ترضوا بما هو دون ذلك . ولا تملّوا عملكم وتحاولوا ستره بستار الحرية (تمنحوهُ للشعوب التي تحكمونها) اذ بكل ما ترومونهُ او تهتمون به او تعملونهُ او تهملون عملهُ ستضعكم هذه الشعوب الصاغة امتم وربكم في ميزان الحكم »

وقد زاد اعجاب الشعوب الانكليزية به لما وقف تجاهها موقف صاحب المزامير تجاه بني اسرائيل بعد الاحتفال ببوبيل الملكة فكتوريا وخاطبها كأنها شعب الله المختار بقصيدة من اشهر قصائده عنوانها « لئلا ننسى » قال في مطلعها : يا آله آبائنا — المعروف منذ القدم . يا رب اجنادنا المنتشرين في مشارق الارض ومغاربها الذي عملك تحت يدهم القوية على النخيل والصنوبر . يا اله الاجناد ابق معنا لئلا ننسى — لئلا ننسى

ترجمته

ولد كبلنغ في مدينة بمباي ببلاد الهند سنة ١٨٦٥ فهو الآن في الرابعة والثلثين من عمره وقد طبّقت شهرتهُ المسكونة وهو شاب . وكان ابوهُ رئيس مدرسة الفنون في لاهور وهو من اعلم اهل زمانه باخبار الهنود وآثارهم وامهُ من عائلة مكدونلد الشهيرة وهي خالة المستر بلدوين رئيس وزارة انكلترا الحالية كانت من نوابغ النساء في التصوير وسرعة الخاطر . فابوهُ انكليزي وامهُ اسكتلندية ارلندية واصل عائلة كبلنغ من هولندا وقد هاجرت منها الى البلاد الانكليزية منذ اربعمائة سنة

وتعلم كبلنغ الهندستانية منذ نعومة اظفاره كما تعلم الانكليزية ومارس جميع الشعائر الدينية الشائعة في آسيا فدخل كنائس النصارى ومساجد المسلمين وهياكل البراهمة . وأُرسل الى البلاد الانكليزية وهو فتى ليتعلم فيها وعاد منها الى الهند وهو في السابعة عشرة من عمره . وجعل محرراً ثانياً في الصحيفة الملكية والحربية بلاهور فالصحافة اول حرفة اشتغل بها وهي الحرفة التي يشتغل بها الآن لان كل ما ينشئهُ نثراً ونظماً انما هو من قبيل الكتابة في الصحف حتى يأخذ عليه بعض النقاد ان الصحافة افسدت فنهُ في جانب مما كتبهُ قبل الحرب لانهُ كان يكتب ما يقصد منهُ الرواج

قال محرّر تلك الصحيفة الاولى في وصفه « انهُ كان يلبس سراويل من القطن الابيض فلا يمضي عليه يوم حتى يتلطخ بالحبر فيمسي كأنهُ من كلاب دلماطيا الرقطاء ذلك انهُ كان يغط قلمهُ في الدواة مراراً كثيرة قبلما يكتب كلمة وكانت حركاتهُ سريعة متقطعة

فيتطاير الحبر من قلمه على ما حوله . واذا دخل مكتبي كما كان يفعل مراراً كنت التفت اليه وآمره ان يقف بعيداً عني مخافة ان يدنو مني بقلمه وهو مملوء حبراً فيطير الحبر منه عليّ حين وضعه المسودة امامي لسرعة حركته ورعشته »

وحرّر ايضاً في صحيفة الله اباد المعروفة براند الله اباد وكاتب جرائد اخرى وبقي بضع سنوات يطوف في بلاد الهند ويدرس احوال اهاليها من اعلاهم الى ادناهم ويطبع صورهم في ذهنه. وقوّة الاستحضار فيه غريبة فيستحضر الصورة التي يريدها ويصفها لك كما لو رأيتها بعين المنتقد البصير . ولقد قال فيه كاتب في مجلة بلاكوود الشهيرة « انهُ اذا ارادت ملكة الانكليز ان تعرف معرفة تامة كيف تُساس سلطتها الهندية وكيف تحمى وكيف يدافع عنها توسلنا الى وزير الهند ان لا يعرض عليها احمال المحرّرات الرسمية بل كتب رديرد كبلنغ فان فيها اتم وصف لبلاد الهند — لا عجب مملكة تسلط عليها المخلوق واعظم بلاد فتحت لاجل الخالق »

وعاد كبلنغ الى انكلترا سنة ١٨٨٩ بطريق الصين واميركا فوجد شهرتهُ قد سبقتهُ اليها وجعل ينشىء القصص القصيرة والطويلة فتنتشر في الاقطار بسرعة البرق . وتزوج سنة ١٨٩٢ وانتقل بزوجته الى اميركا واقام فيها ثلاث سنوات ثم عاد الى بلاد الانكليز وطاف حول المسكونة وهو يكاتب جريدة التيمس وينشىء الروايات وينظم القصائد ولا يتحاشى ذكر الذنوب والفظائع مما لا يروق لكثيرين الى ان أتى بويل الملكة الاخير فنظم القصيدة التي ذكرناها آنفاً وارى الامة الانكليزية الشديدة التدين والورع ان من يتفنن في المجون على الرباب قد يرتل المزامير على القيثارة فصفحت عما مضى واحلتهُ من صدر ادبها محلاً رفيعاً

لكن من الف فقد استهدف ولا يخلو المرء من ضد ولاسيما اذا سبق غيرهُ من الذين قصّروا عن مداهُ وهم يحسبون انهُ دونهم علماً وفهماً . فلما نشر قصيدتهُ المنونة « بحمل الرجل الابيض » انتقدها كثيرون وقال احدهم انها قصيدة رياء وعارضها بقصيدة يخاطب بها البيض بلسان السود يتذمرون فيها من فتح بلادهم للسوم والجور وغيرها من ملابسات المدنية التي تنزل بالنفوس الى الدرك الاسفل

وقد منح كبلنغ جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٠٧ وعيّن بعد الحرب مديراً لجامعة سانت اندروز الاسكتلندية بعد ما نال القاب شرف مختلفة من جامعات انكلترا

فلسفته ونقيدته

انهُ ينظر الى العالم نظرة الرجل العملي فيقبلهُ كما هو بما فيهِ من مساوئ وحسنات

وحقائق واوهام تتفاذف الانسان في تيارها المصطخب وتبتلعهُ في غالب الاحيان . ومن العبث في رأيهِ ان يحاول الانسان تغيير المجرى الذي تجري فيهِ صروف الاقدار . فهو من هذه الناحية شبيهٌ بهاردي . ولكنهُ على طرف نقيض منهُ في ان كبلنغ يأخذ الارض كلها مسرحاً لابطال رواياتهِ وبطلاتها ومصدراً لاشعة فكرهِ وخيالهِ في حين ان هاردي يقتنع بان يدرس منطقة ضيقة من مناطق الريف الانكليزي فيصف دقائقها ويخلص منها الى النتيجة نفسها . وكبلنغ يرى انهُ اذا كان في امكان انسان من الناس ان يزيد الثروة الانسانية برأيٍ او مذهبٍ او استنباط وحاول ان يفعل ذلك في غير الزمن المعدّ لهُ ذهب عملهُ ادراج الرياح . لذلك رسم في كتابهِ « دبتس وكردتس » صورة كاهن من كهنة العصور الوسطى حطّم مكرسكوبهُ لانهُ جاء قبل اوانهِ . ونصّ في كتابهِ « ريوردز آند قاريز » حكاية مختار في عصر الملكة اليصابات تخلّى عن فكر خطر لهُ وهو انشاء سفن مدرعة بالحديد لان زمن المدرّعات لم يكن قد جاء بعد . ولكن الانسان يجب الاّ يتذمر . لذلك يُنطق احد ابطالهِ بقول مأثور « حتى انا لست لاذهب باكياً حتى امام هذا او امام ذاك كاني لا استطيع ان اطالب بحقوقي . حقوقي ! بحق الله العظيم انا رجل ! » فهذه السمة التي يتسم بها ابطال كبلنغ ، هذه الشخصية الانوفة المترفعة في حصنها هي اساس الارستقراطية التي يعدّها اهم العناصر في لعبة الحياة

وقد وقف قصيدتهُ المشهورة « اذا » على وصف الصفات التي يجب ان يتصف بها الرجل الرجل، واليك بعضاً مما جاء فيها : « اذا كنت قادراً ان تحتفظ برباطة جأشك حين يضطرب كل من حولك . اذا كنت تثق بنفسك حين يرتاب فيك الناس . اذا كنت قادراً ان تحلم والاّ تكون عبداً للاحلام وان تفكر من غير ان تجعل الافكار غايتك . اذا كنت تستطيع ان تواجه الفوز والفشل وتعامل هذين على السواء . اذا كنت تستطيع ان تجمع كلّ ما كسبتهُ وتغامر بهِ مستعدًّا ان تخسرهُ وتبدأ من جديد من غير ان تبس بكلمة واحدة عن خسارتك . اذا كنت قادراً ان تمشي الجماهير من غير ان تتخلى عن فضيلتك وان تمشي مع الملوك من غير ان تفقد اتصالك بالجمهور . اذا كنت تستطيع ان تملأ كل دقيقة ستين ثانية من العمل . فالارض لك وكل ما فيها . وما هو اكثر من ذلك، كنت رجلاً يا ابني »

فالارستقراطي في رأيهِ مهما يكن جنسهُ او عقيدتهُ رجل كامل . فهيدن الفلاح الارستقراطي صميم وهو يعتصم بسمتهُ التي تمّ على معرفة وازدواء حين يرى الملاك يتغيرون والارض ثابتة لا تحول . هذا وغيرهُ من ابطال كبلنغ ارستقراطيون في رأيهِ لانهم لا يعنون باشخاصهم قدر عنايتهم بالمبادئ التي تمثلها اشخاصهم ، لانهم كرماء يقبلون على لعبة الحياة

وملءُ افواههم الابتسام ، لا يطلبون مساعدة احد فيها ولا ينتظرون جزاء احد حين تكلّل اعمالهم بالفوز . « فالانسان يجب ان يتألم اولاً ثم يجب أن يتعلم عملهُ ثم يجب ان يعود تلك الكرامة التي تجلبها المعرفة » هكذا يقول كبلنغ

وكبلنغ ليس رجلا يتعلق باهداب المذهب المحدود والعقيدة الخاصة . فهو القائل اذا خلا الانسان في محراب الليل اصبحت كل العقائد في نظره سواء . انهُ لا يجلُّ مذهباً الا بقدر ما يخلق في صدور معتنقيه من الفضائل التي يجلها ويعليها . وهو يقول « ان الايمان الذي يحمل الانسان على التعلق به ولو خسر نفسهُ هو الايمان الجدير بالاعتناق »

ورأيهُ في المسيحية ليس مما يعلي شأنها لأنهُ يزعم انها لم تُنزل من عقول المسيحيين « الخوف من النهاية » وان العالم الغربي يتمسك بالخوف من الموت أكثر من تمسكه بالرجاء من الحياة ! ولكنهُ يعطف على عقيدة كل انسان اذ يرى ان لا بدَّ في هذه الحياة من رادع او وازع لذلك تراهُ يكتب في وصف هيكل من هياكل برما « كن عطوفاً حين يصلي الوثنيُّ لبوذا في كاماكورا »

وهذا يعود بنا الى ما قدمنا عليه الكلام في مفتتح هذا المقال من علاقة كبلنغ بالامبراطورية البريطانية . لاننا حين نذكر دين كبلنغ نذكر دين الامبراطورية البريطانية اذ يتعذر تفصل كبلنغ الشاعر والمؤلف عن الامبراطورية البريطانية . فكأن رسالتهُ في الحياة كانت ربط اجزاء هذه الامبراطورية برابط متين من الاخوة . كذلك لا نستطيع الاَّ ان نقول أن مشهد الامبراطورية بهره ببلدانها المترامية الاطراف في كل انحاء المعمور واساطيلها الضخمة البحرية والتجارية تربط هذه الاجزاء بروابط المصلحة والثقافة . على ان رأيهُ في الامبراطورية ونظرهُ اليها ليس نظر رجل سياسي كلَّ همهِ ان يرى بقعة حمراء قد اضيفت على خريطة العالم . ولكن بريطانيا في نظره الآلهة ، يجلها ويعتبرها كرجل متفنن لانها تحتم على اتباعها ان يتصفوا بصفات العمل والصبر وانكار الذات والامانة والكرامة التي يطلبها هو في الرجل الارستقراطي ويلبسها اعظم ابطاله في رواياته واشعاره . لذلك يدعو الى تأييد الامبراطورية ليس لان بناءها عمل عظيم بل لانها اداة فعّالة في حشد قوى الانسان لمغالبة الكون وترسيخ قدمهِ في فضائهِ . ولما كانت فعالة في توحيد هذه المساعي فالامبراطورية في نظر كبلنغ كالكنيسة الكاثوليكية في نظر كل كاثوليكي

الى هنا نقف بالقارئ عن متابعة البحث وهو كثير الشعاب يتناول اسلوب كبلنغ الفني ومقابلتهُ باساليب معاصريه من الانكليز كولز وبرناردشو وما قد يكون نصيبهُ من الخلود . ولكن المقام لا يتسع لكل ذلك الآن